مدخل
بين شخصيتين
ملامح الائتلاف والاختلاف

الاقتراب من مجال الشخصيات التاريخية التي اتسمت بالتميز في جانب أو أكثر من جوانب الإبداع الإنساني، اقتراب يتطلب الكثير من أخذ الحيطة والحذر من قبل الباحث الذي يريد أن يكون موضوعيًا في رسم ملامح التميز، ومعرفة المكونات التي أهلت هذه الشخصية لتكتسب صفة « التاريخية »، وتتميز عن كثير من الأفراد الذين ينتمون إلى مجال أو أكثر من مجالات نشاطها الإنساني، وقد يتميزون في بعض هذه المجالات، بل قد يتفوقون في جوانب منها - إذا أخذت هذه الجوانب فرادى - على الشخصية التاريخية ذاتها.

وأول ما ينبغي التحوط منه، تأثير قوة الجذب الذي تمتلكه عادة هذه الأنماط من الشخصيات، وهو جذب لا يستطيع أن يفلت منه الباحث بعد طول المقام مع هذه الشخصية قراءة وتنقيبًا ومعايشة، حتى إن الشخصية لتبعث أحيانًا من عصرها الذي عمرته إلى عصر الباحث الذي يعيشه، وتتجاوز الساعات التي يحددها الباحث لها باعتبارها « موضوعاً » يتم بحثه من خلال وسائط مكانية أو زمانية أو تقنية معينة، فتتحول إلى شاغل يملأ فراغ الباحث خارج إطار قاعة الدرس، أو صفحة الكتاب، أو شاشة المعلومات، ويصير «صاحباً» يتجاذب هو والباحث رقعة الزمان أو المكان التي تفصل بينهما، يحاول كل منهما أن يختزلها لصالحه، وأعترف أن الأمير أبا فراس

والأمير عبدالقادر من الذين مارسوا عليَّ ذلك التأثير، فانتقلت إلى عصريهما ومصريهما، ودعوتهما إلى زماني ومكاني، لكنني كنت أُدرك في نهاية المطاف أنك لكي ترى الأشياء بوضوح، فلابد أن تحتفظ بفاصل مناسب بين العين والجسد المرئي، ولابد كذلك أن تختار الزاوية الملائمة التي ترى من خلالها المكونات الرئيسية الجوهرية، التي أتاحت لهذه الشخصية أو تلك ما أتاحت.

وقد يجد الإنسان أحيانًا صعوبة في الرؤية الموضوعية للشخصية ناتجة عن كمية الضوء المحيط بها، وهي كمية لها جانبان من المخاطر، يكمن أحدهما في عدم توافر القدر الضروري للرؤية، ويتمثل ذلك في نقص المعلومات أو انعدامها عن ملمح من ملامح الشخصية أو مرحلة من مراحلها، لكن الجانب الثاني من مخاطر الضوء قد يتمثل أحيانًا في زيادة كمية الضوء على القدر المطلوب، ويتجلى ذلك في المعلومات المبهرة أو المسلّمات المتتالية التي يرددها باحثون سابقون على نحو متواتر، فتغري التفكير بأن لا يعود إلى التقليب فيها، وتدفع إلى الانطلاق منها إلى ما يتلوها، ومع أن ذلك اللون من اليقين هو في ذاته مطلب أساسي من مطالب بناء البحث العلمي، فإن القدر الزائد منه قد يعوق حرية ذلك البحث ونموه وتجدده، إن ذلك يشبه على نحو ما عنصر الدهنيات في الدم البشري، فهنالك قدر لابد منه لكي يؤدي الدم وظيفته على نحو صحي في حفظ الحياة واستمرارها، لكن ذلك القدر لو تجاوز الحد المعقول فسوف يشكل عوائق في مجرى الدم ذاته قد تنسد معها الأوردة والشرايين، ويتوقف ضخ الحياة إلى القلب، وأبو فراس وعبد القادر من الشخصيات التي حظيت بالاهتمام على امتداد المسافات الفاصلة بين كل منهما وعصرنا، اهتم بهما أولياؤهما كما اهتم بهما أعداؤهما، وشكلت بعض مواقفهما مناخًا أسطوريًا قد يدفع البعض إلى أن يرى كل شيء حسناً. وقد يدفع الآخرين إلى أن يتطرفوا في الاتجاه المقابل، واختيار زاوية الرؤية المناسبة، وكمية الضوء المطلوبة في مثل هذه المواقف يحتاج إلى الدقة والاهتمام.

إن رسم الشخصية يكتسب أبعادًا أخرى تتطلب مزيداً من العناية عندما يتم رسم هذه الشخصية في إطار مقارن، أي عندما يكون الحديث عن شخصيتين متميزتين أو أكثر يتم وضعهما في إطار واحد، وهنا لابد أن تكون دوافع الجمع والاختيار ذاتها موضع مساءلة أولى، لأن الأفق التاريخي والجغرافي والنوعي مليء بالشخصيات المتميزة، وتبقى كل منها وهي مستقلة في إطارها، لها حيزها الخاص بها، لكنها عندما تدفع إلى أن تدخل مع شخصية أو شخصيات أخرى في إطار واحد فلابد أن يراعى أولاً تناسب الأحجام الذي يسوغ الجمع في الإطار، ولابد أن يكون ذلك التناسب حقيقيًا فلا يتم اللجوء إلى تضخيم ملمح في إحدى الشخصيات، واختزال نظيره في أخرى، وغالبًا ما يؤدي التعسف في مثل هذه الحالات إلى الإساءة إلى الشخصية التي يراد تكريمها، إن العصا تظل مفيدة في مجالها، يتوكأ عليها الإنسان، ويهش بها على غنمه، ويقضي بها مآرب أخرى، لكنها بدءًا من اللحظة التي تقارن فيها بالسيف، يلحق الضرر والحيف بالمقارن والمقارن به، وأجدى من هذا أن تكون المقارنة بين سيفين أو عصوين .

ولا شك أننا في إطار بحثنا هذا نملك سيفين صالحين للمقارنة، لكنهما أيضًا ينتميان إلى عصرين ومصرين مختلفين، ولابد أن تُراعى بواعث الاختلاف بالقدر نفسه الذي تراعى فيه دوافع الائتلاف .

إننا أمام شخصيتين يعتز كل منهما بانتمائه العربي الإسلامي، بكل ما يعنيه من امتداد حسي يتمثل في سلاسل النسب الموثقة المتلاحمة، والتي تصل بكل منهما على اختلاف الزمان والمكان إلى منبع واحد هو العروبة العرباء والإسلام النقي في صورتهما الشامخة الأولى، وتنتهي السلاسل الحسية والمعنوية إلى الدوحة الحسنية، حيث ينتمي أبو فراس إلى شيعة علي، وينافح عنهم، وتمتد جذور عبدالقادر نسباً إلى نفس المنبع، ويعتز كل منهما بذلك، ويسجله في مآثره شعرًا أو نثرًا .

لكن ذلك الانتماء المشترك يأخذ أيضًا طابع تجسيد القيم المثلى التي أعلت من قدر كل من الشخصيتين، وأبرز هذه القيم الفروسية التي يجسدها كل منهما في عصره، لا من خلال شخصية المحارب الشجاع فحسب، وقد كان كل منهما في هذا بطلاً مشهودًا له، ولكن من خلال التعامل مع الآخرين خصوماً أو أولياء بمعايير الفروسية التي جسدها الشعر العربي (وإليه تنتمي الشخصيتان بدرجات متفاوتة) على نحو جعل الآداب العالمية الأخرى تقتبس منه هذا المصطلح في إبداعاتها، ويحاول صفوة أبنائها وفرسانها اكتسابه في سلوكهم، والفروسية ملمح عربي إسلامي مشترك قد يأخذ أحيانًا مسمى «الفروسية» كما كان الشأن عند أبي فراس الفارس العربي، أو يأخذ مصطلح «الفتوة» كما هو الشأن عند عبدالقادر المجاهد المتصوف، ولكنه يتحقق لديهما معاً، ويلتقيان في جوهر الصفة، ويُعدّان من أفضل أبطالها الذين جسدوها، قولاً وفعلاً على تفاوت بينهما يقل أو يكثر في درجة الإجادة على ظهر الحصان، أو في بحور الشعر مع التقائهما في الميدانين معاً. والفروسية من لوازمها الاتصال بالمرأة على نحو متميز، وقد التقت الشخصيتان في هذه الخصوصية، فشخصية الأم تحتل في حياة كل منهما مكاناً خاصاً، يتجاوز ما هو معهود من برِّ الأبناء لأمهاتهم، فأبو فراس يكاد يكون عاشقًا لأمه الشابة التي لم تنجب سواه، وغاب عنها أبوه في طفولته المبكرة، فالتفَّتْ حوله، ورعته بكل مشاعرها، ثم غاب هو عنها أسيراً في ريعان شبابه، فظلت تبكيه، ويبكيها حتى ماتت، ولحق بها بعد أن سجل ذلك في صفحات تُعد من أنصع صفحات الشعر العربي، وعبد القادر كان أيضًا شديد الاحتفاء بأم عجوز، لكن احتفاءه بها لا يقف عند الرعاية المعتادة، وإنما هو إجلالٌ تحتل به هذه المرأة مكانتها في المحافل الدولية، ويُقبّل إمبراطور فرنسا يدها، وتسأل كبار الشخصيات العالمية عنها، ويؤخذ رأيها في كبريات الأمور، ثم حين تضعف، يُصر ولدها الأمير أن يحملها معه إلى كل مكان وأن يخدمها بيديه، فإذا صعبت عليها الحركة، امتنع هو عنها حتى لو كان ذلك للحج، وإذا كان أبو فراس قد فاض تعبيره عن إجلال الأم شعراً، وجاء تعبير عبدالقادر رعاية وبرّاً، فإن أصل الملمح سوف يبقى، وفروق التعبير لابد أن تُراعى.

والمرأة عند الفارس هي رمز الجمال والعشق، وقد ضرب الرجلان بسهم وافر في ذلك المجال سلوكًا وقولاً، كلٌّ على حسب ما أتيح له، فغزليات أبي فراس ما زال يتغنى بها الناس برغم مرور أكثر من ألف عام عليها، وتصريحات عبدالقادر نثرًا وشعرًا وسلوكًا بسطوة الجمال عليه، ذائعة في رسائله وقصائده.

على أن الرجلين كان من قدرهما أن يكونا أميرين، وإن اختلفت طرائق وصولهما إلى الإمارة أو وصول الإمارة إليهما، فأبو فراس ولد في بيت الإمارة، وعاش في مناخ صراعاتها طوال عمره القصير، ورأى مصرع أبيه وهو طفل في الثالثة بسبب الصراع على الإمارة، وتولى هو نفسه الإمارة وهو فتى صغير في منبج، ثم عاد إلى توليها بعد فترة الأسر الشهيرة حين تولى حمص، ثم سعى إلى إمارة أكبر بعد موت سيف الدولة، فكان ذلك السعي في ذاته سبباً لقتله على يد ابن أخته وأعوانه، ومن هنا فإن طيف الإمارة أو شبحها قد غلف حياة أبي فراس القصيرة من المهد إلى اللحد.

أما عبدالقادر فقد كان أبعد ما يكون عن الإمارة، إذ نشأ في بيت علم وتصوف، وفي زمن كان يتولى الإمارة فيه في الجزائر الأتراك أو من ينيبونهم، ثم جاء الفرنسيون، فأطاحوا بالأتراك لكي يحلوا محلهم، أو يتخذوا بعض صنائع لهم، يديرون لهم الأمور، ولم تكن نشأة عبدالقادر ولا محيطه تؤهله ليكون على صلة بالإمارة في مثل هذا المناخ، ولكن الإمارة سعت إليه على نحو ما سنرى، وخلال سنوات إمارته، نجح في أن يجسد مفهومها الخالص حتى يصير مرتبطاً باسمه، فلا تذكر كلمة « الأمير » في الجزائر في العصر الحديث إلا ويرد اسم عبدالقادر ملازماً لها حتى دون أن يُسمّى، وهكذا تضيف الإمارة ملمحاً إلى الملامح السابقة التي تجمع بين الرجلين في إطار واحد.

وإذا كانا أميرين، فقد قدر لهما أن يكونا كذلك أسيرين، ولم يقتصر التشابه بينهما على مجرد وقوعهما في الأسر فترة طويلة من الزمن، وإنما يمتد إلى وقوعهما

أسيرين خارج ديار العرب والمسلمين ولدى «الفرنجة» بالمعنى العام، أولهما في بلاد الروم، والثاني في بلاد الفرنسيين، ويمتد كذلك إلى معرفة لقدر كل منهما عند آسريه، ومحاورتهم له، ورده عليهم شعرًا، وتمسك كل منهما بمبادئه خلال فترة الأسر الطويلة، وسواء أكان الأسر في « سجن خرشنة »، أو في « قصر أمبواز »، أو كان الأسير قد وقع وهو في ساحة الحرب بعد أن نال من الروم، ونالوا منه، وأثخنوه بالجراح، أو كان قد استسلم بعد طول بلاء، وسلَّم فرسه الأسود للفرنسيين، واصطحب معه ضباطه وحاشيته، فسوف يبقى كل منهما في الحالتين يحن إلى بلاده، ويرفض البقاء حيث هو مهما كان الثمن تكريماً، أو يرفض العودة وفكاك الأسر حين يتاح، إلا في إطار اتفاق يضمن لرفاقه نفس ما يتاح له من مزايا، ويبقى في كل الحالات شامخ الرأس، معبرًا عن اعتزازه بقيمه ومبادئه وعن معاملة آسره معاملة الند للند . وقد عبر الأسيران عن الفترة التي قضياها في بلاد الأعداء، كلٌّ بما أتيح له من قدرات أدبية، فكانت « روميات » أبي فراس درة القصائد في الشعر القديم، وواحدة من شوامخ التعبير عن النفس الإنسانية في كل اللغات، وكانت كتابات عبدالقادر جليّة في الرد على علماء فرنسا الذين أساء بعضهم فهم الإسلام، ومخاطبة الأكاديمية الفرنسية التي اختارته عضواً بها، والرد على الرسائل التي كانت تصله، تستوضح أسرار التسامح والرقي الذي يتبدى في تصرفاته، والذي تتجلى من خلاله الحضارة الإسلامية في معارض لم تكن معروفة لديهم من قبل .

على أن هذه النقاط الكثيرة من التقارب والتشابه بين تجربة كل من الشخصيتين، والتي تتيح من بعض الزوايا لهما أن يجتمعا في إطار صورة واحدة، لا ينبغي أن تشغلنا في إطار حميا التحمس عن نقاط التباعد بينهما، وهي نقاط تقفز أحيانًا أمام العين، كما يقول الفرنسيون، وأولها بعد المسافة الزمنية والمكانية، فأبوفراس ولد عام ٣٢٠هـ، على حين ولد عبدالقادر عام ١٢٢١ هـ، بفارق تسعة قرون بينهما، وهو فارق زمني

كبير تتولد عنه فروق كثيرة فيما يحيط بهما من مظاهر الحياة، وألوان العلاقات بين الأفراد والمجتمعات وطرائق التعبير، وموقع الأمة التي ينتميان إليها من القوة أو الضعف والتماسك أو التفكك والهيمنة أو الرضوخ، وهناك فرق كذلك في المكان بين الشام والمغرب الأقصى من حيث الطبيعة المكانية، والعلاقة بالمحور المركزي للخلافة الإسلامية، والعلاقة بمستوى الإنتاج الأدبي في الشعر، وبخاصة إذا أضيف لذلك فرق ما بين القرن الرابع الهجري وهو قمة فتوة اللغة وإبداعها، والقرن الثالث عشر الهجري وهو البوابة الخلفية للعصور الوسطى الذي كانت اللغة تخرج منه منهكة من مماحكات البديعيين وأشعار الألغاز ونظم النحاة، ولم تكن اللغة قد استقبلت بعد رياح التجديد التي ستهب عليها في فترة لاحقة، بادئة من الشام ومصر، ومنطلقة بعدها إلى سائر الأرجاء.

ولابد أن يلاحظ أيضًا فرق المساحة الزمنية التي أتيحت لكل من التجربتين المتميزتين، فأبوفراس مات في السابعة والثلاثين، وعبدالقادر مات في السادسة والسبعين، فأتيح لإحدى التجربتين ما لم يتح للأخرى من حكمة الشيخوخة وطول الأمد، والبعد عن وهج الإمارة الذي شغل جل حياة التجربة الأولى، وأتيح لها كذلك سعة التجوال، ومن اللافت للنظر أن يجعلها ذلك التجوال تختصر الفاصل المكاني، فيستقر بها المقام في الشام، وعندما تحين لحظة الوفاة يكون مستراح الأمير الأخير قريبًا من مستراح الأمير الأول في دمشق الفيحاء. فتتأرجح نقطة الفاصل المكاني بين انتمائها إلى نقاط التقارب أو التباعد.

ولقد تحتاج قضية البُعد الحضاري والأدبي لكل من التجربتين إلى توضيح يضع كل شخصية في موضعها الملائم لها، ومع أن كلتا التجربتين لها جوانب من البعدين؛ الحضاري والأدبي، تتكامل بها كل تجربة في ذاتها، وتستحق من خلالها أن تكون متميزة في ذاتها، وترتفع بصاحبها إلى مقام الشخصيات المتفردة المؤثرة في مجالها،

فإن توزيع نسب هذه الجوانب تختلف من شخصية إلى أخرى اختلاف أهمية الدور الذي قامت به في مجال البعد الحضاري أو البعد الأدبي .

لقد كانت تجربة أبي فراس تجربة أدبية بالدرجة الأولى ، وقد ساعدتها صفاته المتميزة في مجال الشجاعة ، وتجربته المريرة في الأسر ، وظروف العلاقات الإنسانية التي مرت بها حياته ، ثم كان انتهاء حياته القصيرة في ذاته ختامًا مأساويًا لهذه التجربة المتوهجة ، ومعنى ذلك أن شاعرية أبي فراس هي أنصع مواهبه ، وهي أول ما يتبادر إلى الذهن عند ذكر اسمه ، وهي التي أحلته محلاً متميزًا في الصفوف الأولى لشعراء العربية في كل العصور ، وربما لو لم يكن أبو فراس أميرًا ، ولو لم يكن أسيرًا ، لظل شاعرًا متميزًا في مجال آخر ، وكان سيبرز من خلال نمط من أنماط الحياة التي يمر بها على النحو الذي شكّل أنماط الشاعرية عند أبي نواس ، أو ابن الرومي ، أو أبي تمام ، أو غيرهم ، ومن هنا يصح أن يقال : إن تجربة أبي فراس كانت تمثل موهبة «الشاعر» أولاً ، ثم سيرته ثانياً ، وإن أفضل نتائجها تتمثل في «النص» الشعري الذي تركه ، قبل أن يتمثل في تشكيل «الجماعة» المحيطة به حضارياً ، وإن كان قد ساعد كثيرًا من الجماعات في عصره وفي العصور التالية على التمتع الفني الحضاري بالمعنى الواسع للمصطلح .

أما تجربة عبدالقادر فهي تختلف عن ذلك قليلاً ، فهي تجربة حضارية تسعى إلى التأثير في تشكيل الجماعة المحيطة بها بالدرجة الأولى ، وتعينها على ذلك المواهب التي أتيحت لصاحبها بما في ذلك المواهب العلمية والأدبية ، فعبد القادر كان يسعى إلى تأسيس الدولة الحديثة في الجزائر ، وإلى تنظيم المجتمع على أساس من الاعتزاز بالقيم والمبادئ التي تتشكل منها هوية ذلك المجتمع ، وفي مقدمتها القيم الإسلامية والعربية ، وإلى إذكاء روح الصلابة والمقاومة والاعتزاز بالقومية ، وقد نجح في ذلك نجاحًا كبيرًا .

ومن هنا يصح أن يقال إن تجربة عبدالقادر تتمثل في « سيرته » أولاً بما تشتمل عليه من تخطيط وتنفيذ ونجاح وإخفاق ، وعلاقته بالجماعة المحيطة به وبلوغه بها أهدافاً

معينة، وما أعانه على ذلك من مواهب في التفكير والتعبير، ويأتي الشعر في إطار هذه المواهب، ومن هنا يصح أن يقال أيضًا إنه لو لم يكن عبدالقادر شاعرًا لظل أميرًا ناجحًا وقائدًا متألقًا، وإن كان الشعر قد أضفى عليه جوانب من التميز، وكشف من أعماق روحه الغنية ما لم يكن ليكشف بغير هذا الفن الجميل .

ويترتب على ذلك الفارق الدقيق بين التجربتين، فرق في طريقة الاقتراب من كل منهما ومعالجته، فلا ينبغي أن تعالج كلتاهما بمنهج واحد مراعاة لهذا الفارق، مضافاً إليه مواطن الاختلاف التي سبقت الإشارة إليها، وينبغى كذلك تلافي منهج الموازنة التفصيلية بين الشرائح المشتركة المشكلة لكلتا التجربتين، كأن يوازن مثلاً بين الشاعرين والأميرين والأسيرين والفارسين . . . إلخ، دون أن يعني ذلك عدم رصد ملمح الاتفاق عندما يعرض، لكنه لا يكون هو الهدف الذي يسعى إليه، وتستقصى تفاصيله مراعاة للطبيعة الخاصة بكل تجربة .

ويبقى الاهتداء إلى الملمح الخاص أو المفتاح المميز لكل من التجربتين، وهو عندنا يكمن بالدرجة الأولى في « النص » عند أبي فراس، وفي «السيرة» عند عبدالقادر، دون أن يعني ذلك استبعاد العناصر الأخرى في كلتا التجربتين أو التقليل من أهميتها، ولكنه يعني أننا سنبدأ من هذا «المفتاح» في كل تجربة لاستكشاف ملامح التميز الأخرى من الشخصية .

ما معنى أن يكون البدء بالنص في شخصية أبي فراس، وبالسيرة في شخصية عبدالقادر ؟ معناه تغليب منهج قراءة الشعر في الأولى، ومنهج قراءة التاريخ في الثانية، وتغليب منهج ما، لا يعنى إقصاء سواه، ولكن يعنى رؤيته من خلالها، وفي منهج «النص» يتم الإصغاء إلى الصوت المنفرد للشاعر، ويتم من خلاله الدخول إلى عالم النص باعتباره عالماً موازياً، له مقوماته الخاصة به، وفي « منهج » السيرة يتم الاعتناء بالصوت الجماعي الذي يمثل البطل قمته وقائد حركته، ويتم الاعتناء بالصدى

الذي يحدث بين القائد والجماعة، وعلى هذا الأساس سوف يتشكل المنهج الخاص بالوقوف أمام كل من الشخصيتين .

وربما كان منهج قراءة النص الذي سوف يتبع هنا مع أبي فراس خاصة في حاجة إلى بعض الإشارات التوضيحية قبل الدخول إلى رحاب أبي فراس، فالتركيز في قراءة النص هنا يمثل محاولة لإحداث توازن بين الاهتمام بالسيرة والاهتمام بالنص في حياة هذا الشاعر العربي الكبير .

والواقع أن تاريخ الأدب العربي وتاريخ الشعر على نحو خاص، مارسا ألوانًا متنوعة من التوازنات والاختلالات بين السيرة والنص، فأحيانًا ما تمر سيرة شاعر ما دون أن تثير كثيرًا من الجدل أو الغرابة، فينصرف جل الاهتمام إلى النص، وربما إلى الملابسات التاريخية المحيطة بالنص، دون أن تكون حياة الشاعر نفسها مثارًا للغرابة أو الجدل، وقد تكون حياة شاعر كالبحتري مثالاً لذلك النمط . وهناك شعراء آخرون تكون سيرتهم من الطرافة أو الغرابة، ويكون شعرهم من القوة بحيث يشغلون الناس بالجانبين معاً كما كان الشأن عند المتنبي الذي أثار اهتمام أنصاره وخصومه بنصه وسيرته .

وقد تطغى سيرة الشاعر على بعض جوانب النص، فيتمسك الناس بهيكل السيرة الذي ارتضوه، وقد يتسامحون في نسبة النصوص إليها، بالإضافة أو الإسقاط كما كان الشأن في شخصية مجنون ليلى، وبعض العشاق العذريين، أو في الجانب الأسطوري من أبي نواس، وعنترة، وحالة أبي فراس تندرج في السيرة التي تلفت النظر بغرابتها وطرافتها، فيكاد يعلو صوتها على النص، لكن دون أن يصل ذلك إلى درجة التسامح في إضافة النصوص، أو اختلاق بعضها على طريقة شعراء العذريين .

وواحد من علائم جاذبية السيرة، صلاحيتها لتتخذ، في ذاتها وبمعزل عن نصوصها، منطلقاً لرواية خيالية، كما كان الشأن في رواية «فارس بني حمدان» التي كتبها علي الجارم عن حياة أبي فراس، ولا يعني ذلك أن نصوص أبي فراس خلت من

عناية الدارسين، ولكنه يعني أن جاذبية «السيرة» كانت غالبًا هناك تغازل دارسي النصوص، فما أن يبدأ الدارس في التعرض لجماليات نص عن الأسر، حتى تنهمر الأسئلة عن عدد مرات الأسر، وأماكنه، وطرائق الإفلات منه، ومراسلات سيف الدولة، وسعي الوشاة، ومعاملة الأسير، وقد ينطمر تحت سيل الأسئلة بعض ملامح الجمال التي كانت تستحق أن تُصغي إليها الأذن، وتتأمل فيها العين وقتًا أطول، وذلك ما حاولناه في ذلك البحث، انطلاقًا من قناعتنا بكفاية كثير من الإجابات الجيدة التي قدمت عن الأسئلة المطروحة من ناحية، وبغزارة تلك الأسئلة التي طرحت حول «السيرة» من ناحية ثانية، وسنحاول من جانبنا أن نخفض ما يثار من تلك الأسئلة إلى حده الأدنى . وأن ننحاز إلى الفضول الجمالي أكثر من الفضول التاريخي، ويبقى أخيرًا أن نتساءل حول لون التأمل الجمالي في النص الذي نميل إليه هنا ؟ فلقد أصبح الجمال علماً، وتسعى تطبيقاته في النقد الأدبي وقراءة النصوص أن تكون علماً كذلك، ومن هنا فقد ارتبطت كثير من ألوان التأمل الجمالي وقراءة النصوص في النقد العربي الحديث، بشبكة من «الضوابط» العلمية، تنطلق غالبًا من نظريات غربية في قراءة النص، وتسعى إلى قياس الظاهرة الجمالية على أسس تحاول أن تكون موضوعية، ولا شك في أهمية هذا الاتجاه وجدواه، وفى سلامة الأسس التي يقوم عليها، وفي النتائج الطيبة التي أحدثها في مجال بناء النص، وتذوقه، وربطه بالظواهر المعرفية الأخرى، لكن من واجبنا أن نلاحظ أيضًا أن كثيرًا من صور تطبيقه في النقد الأدبي العربي الحديث، اتسمت بالجفاف، من خلال التركيز على الوسائل أكثر من الغايات، بما يتطلبه من إلقاء شبكة من الجداول والرموز والمصطلحات فوق النص، انطلاقًا من كونها ساعدت في الكشف عن أسرار حركة النص في أجناس أخرى أو آداب أخرى، ويحزنني أن أقول إن كثيرًا من نتائج هذه العمليات «المحبوكة» تبدو وكأنها قتل للنص، وتجفيف كامل للرواء الأدبي فيه، وإنتاج نص نقدي يخلو بدوره من كثير

من الملامح الضرورية التي يتوقع قارئ الأدب أن يجدها في الكتابة التي تهتم بالأدب، والنتيجة الطبيعية تتمثل في مزيد من الانصراف عن قراءة النص الأدبي أو التفسيرات الجمالية المتصلة به .

ولقد آثرت هنا أن أختار لوناً من التأمل الجمالي الذي يستفيد من موضوعية علم الجمال وعلوم اللغة الحديثة، دون أن يبتعد عن « العذوبة الغنائية » التي يمكن أن يمنحها النص الشعري لمن يحسن الإصغاء إليه، ولم يكن من همي أن أضع للقارئ جداول ورسوماً بيانية وإحصاءات يتعثر فيها، أو أن استعرض أمامه ما يتوافر لدي من مصطلحات النقد المترجمة أو المعربة، ومن أسماء النقاد وأصحاب النظريات، فقد كان هدفي أكثر تواضعًا يتمثل في أن أساعد القارئ للنص في أن يقترب من جاذبيته، فإذا ما تحقق ذلك، تركته لجاذبية النص، فربما استطاع أن يصل إلى جوانب من أسرار جماله، لا أستطيع أنا ولا جداولي وإحصاءاتي ومصطلحاتي أن تصل إليه، وأعتقد أنني عندما جربت هذا المنهج أحسست بالاقتراب من منابع ألوان من المتعة الجمالية، آمل أن يكون بمقدوري أن أساعد قارئي على الاقتراب منها .

****